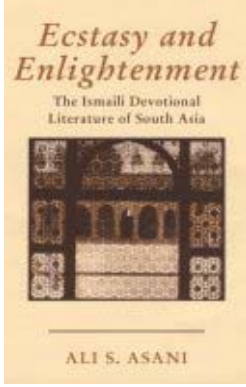




معهد الدراسات الإسماعيلية



النشوة والإستنارة الروحية: الأدب الديني الإسماعيلي لجنوب آسيا بقلم علي آساني

لندن: إ. ب. تورس بالتعاون مع معهد الدراسات الإسماعيلية، 2002
pp xxii + 183. ISBN: 1 86064 758 8 (Hb)

دليل قراءة*

* قسم علاقات الجماعة، كانون الثاني 2006

تُسَقِّعُ عمل الكاتب آساني على شكل مجموعة من المقالات القصيرة سهلة القراءة مع ملحق بالإنكليزية لترجمة العديد من أدب الجنان من التراث الإسماعيلي لشبه القارة الهندية والتي عرفت في الفترة التي كتبت بها بمصطلح ست بنث¹. قسمت تحليلات الكاتب آساني لتراث الست بنث في الأدب الديني لسبع مقالات والتي يمكن جمعها بثلاثة أجزاء: مقدمة وتحليل لمواضيع الجنان والجيتس² وعرض تاريخي وتحليل للكتابات الخوجكية.

تعرف المقالة الافتتاحية بأسلوب الكاتب الأكاديمي في دراسة الجنان. يناقش الكاتب أهمية قراءة الجنان وفقاً للظروف التاريخية التي كتب فيها ويُعرف ثلاثاً من هذه السياقات: المسلم-الهندي والهندي والإسماعيلي. تتكرر هذه الثلاثية في جميع المقالات مع احتواء الفصول الوسطى من الكتاب على ذكر قوي للسياق الهندي. في الفصل الثاني 'الجنان كأدب ديني' يستعرض الكاتب بعض المناقشات في دراسات الجنان: أصل الجنان وتجميعه في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وعلاقته مع القرآن بالإضافة لمصطلحات الحركات الهندوسية الدينية في ذلك الوقت.

يوضح الفصل التالي 'الرموز الزفافية في الجنان' الظهور الواسع لهذا التعبير المجازي على امتداد الخارطة الدينية في شمال الهند في العصور الوسطى بينما يروي الفصل الرابع والذي يبحث في تقليد الجيت كيفية استمرارية التعبير عن حب الإمام في الأغاني الشعبية في العصور الحديثة. يعالج الفصل الخامس موضوع من كُتِبَ الجنان حيث يناقش الكاتب آساني أهمية هذا البحث الأكاديمي للجماعة الذي لا يزال أدب الجنان حياً لديها للتعبير عن الورع والتقوى.

يبحث الفصلين الأخيرين من الكتاب تطور الكتابات الخوجكية والتي استخدمت حصراً من قبل الإسماعيليين الخوجا في شبه القارة الهندية من القرن الثامن وحتى منتصف القرن العشرين³. يراجع الكاتب هنا كيف تطورت الكتابة الخوجكية من كتابة لأغراض تجارية إلى كتابة مستخدمة لتدوين النصوص المقدسة. يحاول الكاتب آساني باستخدام الأدلة الأثرية بالإضافة لدراسة مخطوطات الجنان أن يوضح الدور الذي لعبه البيروز (الشيوخ) (جمع بيروز (شيخ)) في أصل وتطوير الكتابة الخوجكية. وبذلك فإن المقالات في هذا الكتاب تضع الجنان في الإطارين اللغوي واللاهوتي بالإضافة للإطار التاريخي وتتناول هذه المقالات هذه الأطر ضمن السياقات الثلاث السابقة.

وكما ذكرَ في الأعلى فإن الكاتب يؤكد بأن السياقات الثلاث التي يتوجب فهم الجنان من خلالها هي السياق الإسماعيلي والسياق الهندي-المسلم والسياق الهندي. يناقش آساني مع آخرين أن الجماعة الإسماعيلية قد تأسست في شبه القارة الهندية من خلال جهود البعثات التبشيرية (الدعاة ويرمز لهم في الجنان بالبيرز) والذين أرسلو من بلاد فارس⁴. لم تكن العلاقات التي أسست بين البيرز وبين المؤمنين الإسماعيليين تختلف عن تلك القائمة بين الجماعات الصوفية في المنطقة والتي كانت تُؤمن أيضاً بالذليل الروحي والأبعاد التقشفية والتطورية في حياة الفرد الدينية.

كان أتباع الطرق الصوفية وغيرها من الجماعات المسلمة جزءاً من البيئة الإسلامية الهندية الكلية والتي تطور ضمنها التراث الإسماعيلي. اختلفت هذه الجماعة في علاقتها مع غير المسلمين من السكان المحليين. يعرف الكاتب أسلوبين واسعين لهذه العلاقة: 'المنفصلون' و'المستوعبون'. شمل 'المنفصلون' بعضاً من رجالات الدين البارزين والقائمين على المحاكم المسلمة المتنوعة والذين فضلوا الحفاظ على تراثهم 'التركي-الفارسي' منفصلاً عن الممارسات الدينية للسكان الأصليين كما حصل مع القائد الديني في القرن الرابع عشر عندما منع أتباعه من استخدام المصطلحات اللغوية الهندية للحديث عن الله⁵. أما 'المستوعبون' من ناحية أخرى فقد شملوا الجماعات المسلمة الأخرى والذين اعتمدوا على المفردات اللغوية والأمثلة المحلية للتعبير عن حبيبهم الله وبذلك فقد طوروا علاقات أقرب لممارسة العبادة المحلية. يصف الكاتب كيف مزجت الجماعات الصوفية والطريقة الشيشتية على وجه الخصوص بين الممارسات الهندية والمسلمة في العبادة:

وعلى سبيل المثال فقد ساهم شيوخ الطريقة الصوفية الشيشتية بتشكيل أشعار العبادة حول المواضيع الصوفية المسلمة باللغات المحلية والتي كانت أبعادها وتعبيرها وتشابهاً كبيراً جداً مع الأشعار الدينية لشعراء التراث الباكتي. أدت رعاية الشيشتيين في العديد من الأماكن الناطقة باللغة الهندية في الأجزاء الشمالية من الهند لتطور العديد من الملاحم الرومنسية الصوفية بالعديد من اللهجات الهندية والتي أعيد صياغة أحداثها الرومنسية الهندية المحلية بطريقة شعرية احتوت على دلالات صوفية مستقاة من الأفكار الصوفية. استخدم الشعراء الصوفيون في السند والبنجاب ضمن السياق الإسلامي المفهوم الهندي 'فيراهما' (الحب في البعد) ومصطلح 'فيراهيني' (شوق المرأة لحبيبها). كلا المصطلحين ارتبطا بالتراث الديني الهندي بشوق الجوييب (خادمة البقر) وبالأخص رادها 'لأفاتارا كريشنا'. بناءً على المفاهيم الهندية فقد قدم الشعراء الصوفيون النفس الإنسانية كزوجة أو عروس تتوق لحبيبها والذي قد يكون الله أو النبي محمد⁶.

طور الإسماعيليون كما الصوفيون الشيشتيون أدباً دينياً تغلغل في الصور الدينية الهندوسية. تأثر الجنان في التراث الإسماعيلي أيضاً بشكل عميق بالحركات المعادية للبراهمية والتي انتشرت على نطاق واسع في شمال الهند بين القرنين الحادي عشر والسابع عشر. عارضت هذه الحركات احتكار رجال الدين السلطة الدينية واستخدامهم المطلق للغة السنسكريتية في كتابة الأدب الديني. أكدت الحركات البكتية والسانتية كالإسماعيلية السانتانية والطريقة الشيشتية على العبادة الداخلية مقارنة بالطقوس الخارجية للعبادة كما استخدموا محبة الإله كوسيلة للنجاة ولقد ثمنوا ذكر أسماء الله إضافة لدعم المرشد الروحي (الغورو) كوسائل للتوحد مع الله. استعار شعرهم من المفردات الهندية ما لزم عن الزواج والقرابة للتعبير عن علاقات البشر مع الله. وكما ذكرنا في الأعلى ضمن المقطع السابق من كتاب آساني فقد استخدم مصطلح 'فيراهيني' (شوق المرأة لحبيبها) في الشعر عند كل تلك الحركات. فقد اختلف المحبوب عند 'فيراهيني' باختلاف المستمعين: فقد يكون الله أو النبي محمد أو الإمام الإسماعيلي أو الشيخ الصوفي أو كريشنا أو فيشنو. وهذا شهادة عن الإنفتاح والمرونة الكبيرة لهذا الأدب الديني.

لقد ساهم السياق الهندي في تعريف العالم على المجتمعات التي رعت واحتفت بالإسلام. يناقش الكاتب بأن الإسلام الشيعي الإسماعيلي قد انتشر في شمال الهند من خلال تحويل جماعات كاملة أو أجزاء من جماعات من خلال نشاط البيرز والذين قدموا الإسلام الشيعي الإسماعيلي كمرحلة الوصول للغايات الدينية المثالية لتراث تلك الجماعات. ولذلك فقد تُرجمت عقيدة الإمامة وشرحت من خلال المصطلحات المستخدمة في التراث الهندي. مكنت هذه المصطلحات الناس من فهم البنية المركزية للإسلام الشيعي والإمامة كما وفرت هذه المصطلحات المفردات التي استطاع من خلالها المؤمنين فهم علاقتهم مع الإمام. الاستعارات المجازية للرؤية والنور كانت أمثلة عن التراث الذي يوضح العلاقة بين المؤمن والإله. في الإسماعيلية يتوق المريد لرؤية (دارشان) -النور الإلهي- والذي ينتقل لكل إمام جديد من خلال نسله المقدس والذي ينحدر من النبي محمد من خلال ابنته فاطمة وابن عمه وزوج ابنته علي الإمام الإسماعيلي الأول. في التراث الهندي يقابل هذا التوق لرؤية النور رغبة 'فيراهيني' لرؤية حبيبها:

إنني عطشى لرؤية (دارشان) منك يا حبيبي

لبي رغبة قلبي يا حبيبي
أنا عطشى وكلّي أمل بك
لكن لماذا لا تظهر ولو حتى القليل
من الإهتمام بي
أخدمك بإخلاص ومحبة
لكن لماذا يا حبيبي تهرب مني
بهذا الغضب؟

.....
كيف يمكن للسمة أن تعيش
بعيداً عن حبيبها (الماء)؟
لخاطر حبيبها فإنها تترك الحياة
تعاني السمة خارج الماء الوحدة القاتلة
انظر كيف تختنق وتموت (بالم)
تختنق وتختلج من دون فائدة
بينما الصياد لا يبدي أي شفقة

اعتبر حب النحلة حباً زائفاً
لأنه ليس بهذه الطريقة تحصل على
رؤية المحبوب
اعتبر حب النحلة حباً زائفاً
فهي تنتقل من زهرة لأخرى ترشف
الرحيق
هذه هي طرق اللامبالين والعميان
الذين فقدوا الفضيلة
(فهم أنانيون) لا يضحون
بحياتهم من أجل حبيبهم

اعتبر حب الفراشة حباً حقيقياً
لأنه بهذه الطريقة تنال رؤية
المحبوب
اعتبر حب البقرة حباً حقيقياً
فهي تقدم جسدها بعزم وتصميم
لشمعة واحدة
كم فراشة قدمت حياتها هكذا؟

يوضح الكاتب آساني أنه وفقاً لطبيعة التقاليد الباطنية في الإسلام فإن التوق للتوحد مع الإله كما تتوق الفراشة للتوحد مع ألسنة اللهب يعتبر إعادة إتحاد فالإله هو أصل كل النفوس وقد عقد معها عهداً بدئياً⁸. نجد في هذا المقطع من الجنان صوراً من كلا القرآن والشعر الديني الخاص بالعصور الوسطى في شمال الهند.

كما التعابير في الجنان مفتوحة ومتاحة للإستخدام عند الطرق الدينية الأخرى فإن وجود النصوص المكتوبة بالطريقة التي كتبت بها تشهد على الحدود المرنة بين الطرق الدينية في ذلك الوقت. استخدمت الكتابة الخوجكية بشكل حصري من قبل الإسماعيلية النزارية في السند وكجرات والبنجاب ويظهر أنها تطورت عن كتابة اللوهاناكي التي استخدمت في القرن الثامن من قبل جماعات اللوهان الهندوسية⁹.

كانت الخوجكية جزءاً من مجموعة من الكتابات التي استخدمت في البداية لحسابات المحال التجارية وكان فيها كل العيوب التي وجدت بباقي الكتابات المستخدمة في التجارة في ذلك الزمان والمكان. وبينما يعتبر الجنان البير صدر الدين (توفي عام 1400 للميلاد) بأنه هو من أوجد هذه الكتابة إلا أن الكاتب آساني يؤكد بأن البير صدر الدين قد ساهم في تطوير الكتابة وتحسينها لتناسب التعابير الأدبية¹⁰. لقد ساهمت الكتابة الخوجكية بالإضافة للحفاظ على تداخل التراث التجاري مع الكتابات الدينية في حفظ العديد من النصوص الدينية بالإضافة للجنان. تُدَوّن الكتابات أساطير عن الأنبياء والبكاء على شهادة الأئمة الشيعة والكثير من الأحرار (جمع حرز: حجاب)

والصفات السحرية والأدوية الشعبية ولقد تم ذلك في العديد من اللغات بما في ذلك السندي والكجراتي والهندي. ينوه الكاتب آساني للأهمية الكبيرة لهذه الكتابات في الحفاظ على الذاكرة الجماعية للإسماعيليين الخوجا:

وجود هذا الخليط الأدبي في الكتابات الخوجكية يلقي الضوء على تنوع التراث والمبادئ الدينية التي تعتمد عليها الجماعات الإسماعيلية النزارية حتى القرن العشرين عندما طرأ عليها تحول تدريجي بالهوية. وتسجيل مكتوب يعكس حقبة من الماضي وما احتوته من تراث ديني فإن تراث الكتابات الخوجكية يقدم لنا الصور الوحيدة عن وجه من الحياة الدينية للخوجا والتي كانت لتفقد لو لا ذلك¹¹.

يتوجب العودة للكتابات الخوجكية لدراسة الحضارة الدينية لحقبة خلت من التاريخ الإسماعيلي إلا أن فلسفة وروح هذه التقاليد الدينية لاتزال حية من خلال الجيتس أو الأغاني الشعبية بالإضافة للجنان. يعبر عن حب الإمام وولائه في الجيتس المعاصر والذي ما يزال يكتب باللغات الجنوب-آسيوية ويتلى في الإحتفالات في شبه الجزيرة الهندية بالإضافة لأماكن تواجد الإسماعيليين عالمياً من ذوي الأصول الجنوب آسيوية.

لاتزال قيمة التبرك برؤية نور الإمام حية عند الجماعة اليوم. يشكل الجنان إرثاً ثقافياً قيماً للتسامح الديني والتعددية وخصوصاً في وقت يعمل المتطرفون فيه على شق الصف وخلق النزاعات بين الهندوس والمسلمين¹². لقد كتب آساني في أماكن أخرى عن دور الجنان في تغيير الهوية الإسماعيلية في شبه القارة الهندية في القرن العشرين¹³. إن تعقيب الكاتب في كتاب النشوة والإستنارة الروحية على تأليف الجنان ودور الجنان كمفسر للقرآن والتغيرات المعاصرة على لغة الجنان ذو أهمية أيضاً لفهم كيف يتغير هذا الأدب الديني والجماعة التي تحتفظ به في الفترة المعاصرة.

لا يزال الارتباط الديني في فجر القرن الحادي والعشرين يمثل دليلاً هاماً لهوية الشعوب على إمتداد الكرة الأرضية. يمثل الأدب الديني للإسماعيليين في جنوب آسيا تراثاً حياً حتى اليوم. يمكن الرجوع لبعض الأمثلة في موقع معهد الدراسات الإسماعيلية على الموقع الإلكتروني:

(http://www.iis.ac.uk/library_iis/gallery/ginans/ginans.htm)

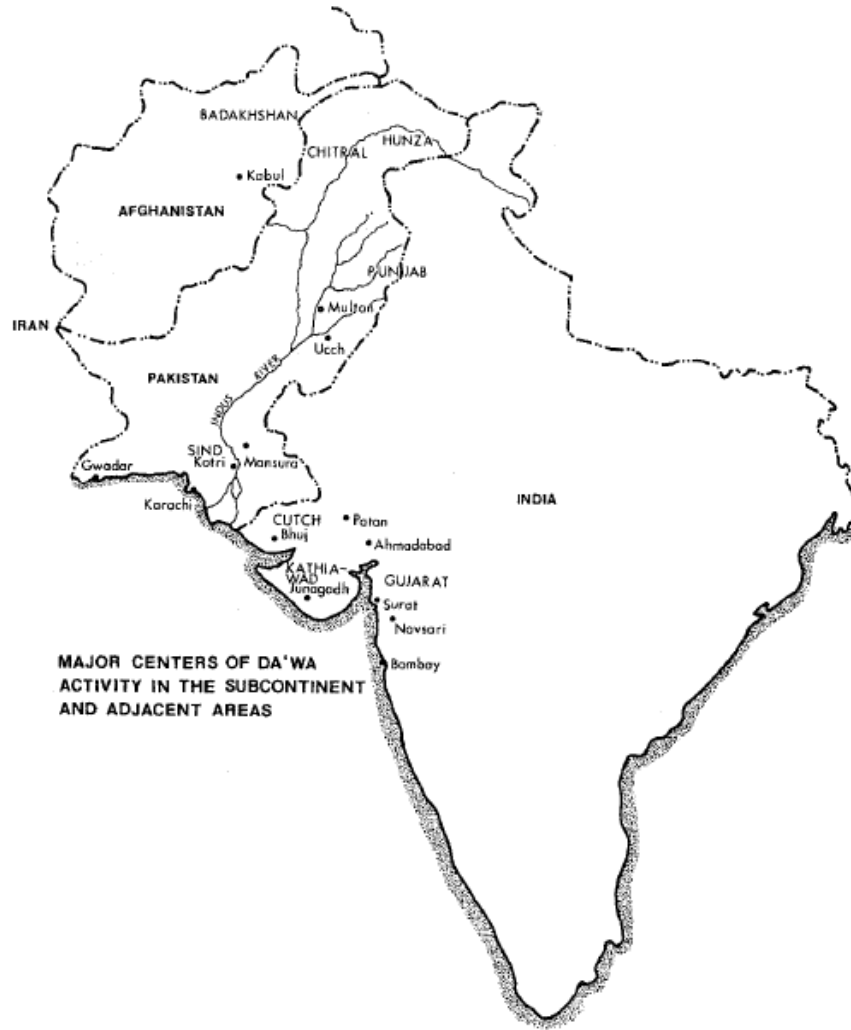
يقع الجنان حالياً تحت خطر الانفصال عن الأصل عندما ينتشر حول العالم. لذلك فإن كتاب علي آساني النشوة والإستنارة الروحية يمثل دليلاً هاماً صدر في الوقت المناسب عن تاريخ وأخلاقيات هذا التراث الإسلامي الفريد من جنوب آسيا ويهيئنا لنفكر بالتحديات التي تواجهه في العصر الحديث.

أسئلة مقترحة

- 1) هل الأشعار والأغاني الدينية حكر على المسلمين في جنوبي آسيا؟ أعط بعض الأمثلة عن تراثيل موسيقية عند جماعات مسلمة أخرى.
- 2) ماذا يحرك فيك الإستماع للأغاني الدينية؟
- 3) لأي مدى تقع أهمية لغة الأدب الديني بالنسبة لمعناه في حياة الفرد الدينية؟

التوزع الجغرافي للجنان. أعيد نشر الخريطة بعد موافقة:

A. Nanji, *The Nizari Ismaili Tradition in the Indo-Pakistan Subcontinent*. Delmar, 1978.



المراجع والملاحظات

1. يعني مصطلح ست بنث حرفياً الطريق الصحيح أو كما يعرف باللغة العربية الصراط المستقيم. يستخدم آساني مصطلح ست بنث ليشير إلى شكل معين من الإسماعيلية في شبه القارة الهندية ومناطق أخرى من العالم يعيش فيها مهاجرون اسماعيليون من شبه القارة الهندية ويطلق على هؤلاء لقب الخوجا، والخوجا مصطلح مشروح في الملاحظة رقم 3 في الأسفل. وعلى أي حال فإن الكاتب سيستخدم المصطلح الأكثر شيوعاً "الإسماعيليون" في القسم المتبقي من دليل القراءة هذا. من ضمن الدراسات والترجمات الأخرى للجنان والتي تناولها آساني في هذا الكتاب نذكر كتب:
 - عزيز اسماعيل: عبير خشب الصندل، لندن 2002.
 - كريستوفر شاكل وظواهر موير: ترانيم إسماعيلية من جنوب آسيا: مقدمة للجنان، لندن 1992.
 - تعظيم قسام: أغاني حكمة وحلقات رقص: ترانيم من الأولياء المسلمين الإسماعيليين الساتبانث، البير شمس، ألباني، نيويورك 1995.
2. يصف آساني الجيتس على أنها أغاني شعبية دينية والتي على عكس الجنان لا تزال تكتب حتى اليوم.
3. يشمل اسماعيليو الست بنث في شبه القارة الهندية من ا عتتق الإسماعيلية من الجماعات الأخرى المتنوعة. يذكر التراث أن اللقب الفارسي خوجا قد مُنح من قبل البير صدر الدين (توفي عام 1400) لمن تحول للإسماعيلية من جماعات لو هانا. هذا اللقب الفارسي الشرفي يعني 'السيد' ولقد دخل اللغة الهندية وانتشر بلفظ خوجا وهو اللفظ المستخدم حالياً للإشارة لإسماعيلي الست بنث.
4. يعود انتشار الإسماعيلية وتزايد عدد الإسماعيليين في شبه القارة الهندية للدعوة، وهي شبكة لها تنظيم هرمي من الدعاة. دُعمت هذه المنظمة وأشرف عليها من قبل الإسماعيليين في إيران بعد سقوط الدولة الفاطمية في شمالي افريقية حيث تم ارسال دعاة لشبه القارة الهندية باكراً (ربما منذ القرن الحادي عشر).
5. انظر كتاب آساني، النشوة والإستنارة الروحية، صفحة 9.
6. آساني، النشوة والإستنارة الروحية، صفحة 8. الشيشتية عبارة عن جماعة صوفية خاصة وتعرف شعائرها أيضاً 'بالطريقة' اشتهرت في العالم الإسلامي بمزجها الموسيقى مع طقوس العبادة الدينية. تشكل مزارات شيوخ الشيشتية السابقين أماكن لتلاوة 'القوالي' وهو شعر ديني يغنى مع الأدوات الموسيقية. كمثال على هذا انظر كتاب: كارل إرنست وبروس لورنس: نظام الشيشتية في جنوب آسيا وما بعد: شهداء الحب الصوفيون، 2002 .
7. انظر كتاب آساني النشوة والإستنارة الروحية، صفحة 162.
8. انظر على سبيل المثال كتاب آساني الصفحة (59): "الإجتماع البدئي يشير لآية من القرآن الكريم (7:172) عندما يدعو الله البشرية المستقبلية (من ظهر آدم الذي لم يخلق بعد) ويقول لهم الكلمات التالية: (أأست بربك؟) وأجابوه: (بلا شهدنا). كان لفكرة العهد البدني بين الله والإنسان انطباع عميق على تطلعات المسلمين الروحية.... يشكل هذا الحدث فيما قبل الوجود تذكيراً لنا بتأسيس الرابطة الأزلية بين الله وخلقهم. يرى الصوفيون هذه العلاقة مبنية على الحب والطاعة".
9. انظر كتاب آساني النشوة والإستنارة الروحية، صفحة 101.
10. انظر كتاب آساني النشوة والإستنارة الروحية، صفحة 101.
11. انظر كتاب آساني النشوة والإستنارة الروحية، صفحة 144.
12. لفهم مرونة وانسيابية الديانات في الهند في العصور الوسطى ننصح بقراءة كتاب: دومينيك سيل-خان: عبور العتبة (الحد): فهم الهوية الدينية في جنوب آسيا، لندن، 2004.
13. علي آساني، 'الخوجا من الهند وباكستان: البحث عن هوية إسلامية' JIMMA، المجلد 8 العدد 1 (1987)، الصفحات من 31 وحتى 41.